

2

قصص الصحابية

صوت
من السماء

سلوى العناني

دار اللطائف
publishing company

صوت من السماء

(بلال بن رباح)

[أنا الحبشي الذي كان بالأمس عبداً .. كنت ضالاً فهداني
الله .. وكنت عبداً فأعتقني الله] بلال بن رباح

هذا يومٌ من أعظم أيام التاريخ .. وربما كان أعظمها ..
ففى هذا اليوم فتح الله للإسلام فتحاً مبيناً .. فدخل
الرسول الكريم .. عليه الصلاة والسلام .. مكة المكرمة
على رأس عشرة آلاف من المسلمين .. كان منهم الأنصار
ومنهم المهاجرون ، ومنهم أبناء القبائل الأخرى التي
أسلمت ، وآمنت بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ..

كان (محمد عليه السلام) يتمنى أن يدخل مكة دون أن
يسفك دمًا على أرضها لتظل (حراماً) كما أراد الله لها ، وقد
منَّ الله عليه بهذا ..

فها هي طلائع المسلمين تقترب من بيوت مكة ، ولم
يظهر من يعترض سيرها ..

إلى البيت الحرام اتجه النبي ، ومع باقي المسلمين وارتفع
ندائهم .. لَيْتَكَ اللَّهُمَّ لَيْتَكَ ، وتسابقوا إلى تحطيم الأصنام
على الكعبة ومن حولها .. وأزالوا الرسوم ، ومحووا كل
مظاهر الشرك وارتفعت تهليلاتهم .

{وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا }
[الإسراء: 81]

وجاء موعد الصلاة .. ومن فوق الكعبة ارتفع للمرة
الأولى صوت جميل ، يتدأ الحق .. فكان ، وكأنه (صوت من
السماء) .

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

أشهد أن محمداً رسول الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..

حي على الفلاح .. حي على الفلاح ..

الله أكبر .. الله أكبر .. لا إله إلا الله ..

فَمَنْ هذا الرجلُ الذي كان له شرفُ إطلاقِ نداءِ الحقِّ
بالصلاةِ لأولِّ مرةٍ في الكعبةِ المشرقةِ يومَ النصفِ من
رمضانَ في العامِ الثامن للهجرة ٢٢..

من هذا الرجلُ النحيلُ شديدُ السمرةِ مفرطُ الطولِ ..
قصيرُ الشعرِ؟

إنه (بلال بن رباح) ..

أول مؤذن في الإسلام ..

أول من رفع نداءَ الصلاةِ في مدينةِ رسولِ الله ..

كما علَّمه إلهُ الرسولِ ..

ثم هو يحظى بشرفِ رفعِ نَفْسِ النداءِ في الكعبةِ يومَ فَتَحَ
المسلمون مكةَ ، وخطبوا حاضرينَ رايةَ الإسلامِ ، والتوحيدِ
الله ..

فهل ترجعُ قليلاً مع الأيام لتعرفَ من هو (بلال بن
رباح) ؟



كان هذا الرجل قبل إسلامه (عبداً) يرمى الغنم لرجل
من سادة قريش يدعى (أمية بن خلف) ، وكان أجره (بضع
مئات) يأخذها في نهاية يوم شاق من العمل ، ويتحسّر
جانباً ، فيأكل منه ما يأكل ، ثم يفرش الأرض ، لينام .. وفي
الصباح يمضي مع الإبل إلى حيث الكلاء غير عابئ بحرارة
الشمس ، ولا بقسوة الطبيعة .. ومذا هو فاعلٌ ، وهو عبدٌ
لا أهل له ، ولا عشيرة ، وهو لا بد أن يستمر في عمله ،
حتى يضمن هذه التمرات التي لا تكاد تُسدُّ رمقه ؟

كان يتأمل الطبيعة حوله .. هذه الشمس تدور في فلكك
محكم ، فتتظم الأيام ، والليل ، والنهار ، وهذا القمر يأتي ،
فينظم الشهور ، والسنوات .

هذا الكلاء ينمو بين الصخور ، وفي الرمال .. وهذه
السحب تأتي أحيانا بالطر ، وأحيانا تعبر الأرض فلا تجود
عليها بشيء من الماء .

كان راضياً بنصيبه من الحياة .. فهو عبدٌ أجير ليس له
حق المعرفة .. كان يحس أنه فقد الحق في أن يعلم بأن يكون

يومًا مثل باقي البشر .. فهو أسود البشرة وابن «أمّة»^(١)
كانت هي الأخرى سوداء .

وسط ظلام الحية حوله تسلل إليه يوما طيف نور أبسط
فيه الأمل .. وداعب الحلم ..

فقد سمع أن نبيا ظهر في مكة يدعو الناس إلى عبادة إله
واحد ويقول : إن الناس سواسية ، ولا فضل لأبيض على
أسود إلا بالتقوى- وإلى هذا الرسول النبي ذهب (بلال) ،
فسمع حديثا لم يسمعه من قبل - وأحسن لأول مرة أنه
إنسان مثل باقي البشر ،

وأنه قادر على أن يعلم ، وأن يحقق أحلامه ..

ونطق (بلال) بالشهادة بين يدي رسول الله وبدأ يأخذ
عنه تعاليم الإسلام .. وبدأ يشعر وكأن ضيئة بغمض نفسه
وينير قلبه.

ويصل إلى علم (أمية بن خلف) ما أقدم عليه (العبدُ

الحشي) ، فيثور ثورة ما بعدها ثورة .. فكيف لهذا العيد أن
يعتق ديناً غير دين سيده .

كان هذا السيد زعيماً في قومه .. وكان واحداً من هؤلاء
الذين ثاروا ضد دعوة هذا الدين الجديد وتوعدوا صاحب
الدعوة وكل من يؤمن به بالويل ، والشبور .

في ساعة الظهيرة جاءوا (بلال) مقبلاً بالسلاسل
فطرحوه أرضاً فوق الرمل ، والحصى الملتهب ، ثم حمل
مجموعة من الرجال صخرة ضخمة ، ووضعوها فوق
صدره ..

وجه سيده يحمل السوط ، فيهوي به على ما ظهر من
جانبه طامعاً في أن يسمع منه كلمات اعتذار ، أو عذوة عن
هذا الدين الجديد الذي اعتنقه .. لكنه لم يسمع من بلال
إلا كلمة واحدة .. أحد أحد .. أحد أحد .

وتزداد ثورة (امية بن خلف) ويأمر بمضاعفة العذاب
على جثته (بلال) .

وبدا الكفار في مساومة (بلال) .

- اذكر آهتنا بلخير فيتوقف عنك هذا العذاب .

- قل ربي اللات والعزى .

- اذكر (محمدًا) بسوء .

فقط ينطق بكلمة واحدة ، ويتوقف العذاب ، لكنهم لم يسمعوها منه إلا ما آمن به .

أحدُ أحدٌ .. أحدُ أحدٌ ..

ويعلم (الصديق) أبو بكر بما حدثت (بلال) فيذهب إلى (أمية بن خلف) يطلب منه شراء (العبد المتمرد بلال) .. ويرفع أمية بهذه الصفقة .. فلها هو يتخلص من هذا العبد المشاغب ، ويخرج عن نفسه عار هذا الدين الذي اعتقه .. ثم هو يقبض ثمنه .. وهذا خيرٌ من قتلوه .. ويسلم (أبو بكر) الدراهم إلى (أمية) .. ويصطحب معه (بلالا) ، ويشره بالحرية ..

نعم ، فقد اعتق أبو بكر (بلالا) منذ لحظة شرائه ، وإلى



أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ينضمُّ (بِلالُ) ،
ويتدارسُ الدينَ ، ويحفظُ القرآنَ ، ويدأبُ على الصلاة ..
ثم يهاجرُ مع من هاجرَ من المسلمين إلى المدينة هرباً من
ظُلُم كفارِ مكة ، وطفغيانهم .

وفي المدينة بدأتْ دولةُ الإسلامِ تُرسي أركانها .. ففُرِضَتْ
الزكاةُ ، وفُرِضَ الصومُ ، واتسعتْ رقعةُ المدينة بزيادةِ عددِ
المسلمين وكان لا بدَّ من وسيلةٍ تجمعُ المسلمين للصلاة في
وقتها .. وعلى لسانِ (جبريل) جاء الأمرُ للنبيِّ الكريمِ يرفعُ
الأذانَ في مواعيدِ الصلاةِ .

ويختارُ النبيُّ أجملَ صحابته صوتاً لكي يرفعَ نداءَ الحقِّ في
سماوِ (المدينة) .

وفي موعدِ كل صلاةٍ يصعدُ (بِلالُ) فوقَ بيتٍ مرتفعٍ
يجاورُ منجدِ الرسولِ ، فيطلقُ صوته الجميل العذب بلحلي
كلماتٍ سمعتها أُنْدُ على سطحِ الأرض ..

الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر ..

أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..

أشهد أن محمدًا رسول الله .. أشهد أن محمدًا رسول الله ..

حي على الصلاة .. حي على الصلاة ..

حي على الفلاح .. حي على الفلاح ..

الله أكبر .. الله أكبر ..

لا إله إلا الله ..

لقد ارتفع هذا الصوت يومًا مردفًا - أحدُ أحدٍ - بينما

كان العذابُ ينهلُ على جسدِ صاحبه .

وها هو اليومُ يرفعُ الأذان ، ويدعو الناسَ للصلاة ، وهو

قنخورٌ .. سعيدٌ .. راضٍ .. فهو اليوم رجلٌ حرٌّ .. مؤمنٌ .. وها

هم المسلمون ازدادوا عِزًّا ، وقوة ..

ولم يرضَ كفارُ قريشٍ ، وغيرها من قبائل العربِ بهذا

الاستقرار الذي ينعمُ به المسلمون في المدينة ، وأزعجتهم

هذه القوة في العلى والعلى التي وصلوا إليها .. فتصدت

غزواتهم يتمنون أن يكسروا شوكةَ الإسلام ، ويشغلوا

للمسلمين عن دينهم محروبة تُقْنِي وحاطم ، وتسد ثرواتهم ،
وكانت (بلل) هي أولى العزوات التي شنها كمبر قريش ،
الحنفاؤهم على المسلمين . وتسابق المسلمون لحمل
السلح ، دعاها عن دينهم ، وخرجوا للقاء هؤلاء المشركين
الذين سبق أن أذاقوهم سُرَّ العذاب ، والاصطهاد أثناء
وجودهم في مكة . وكان (بلال) واحداً من بين هؤلاء
الذين انطلقوا إلى ساحة القتلى ، مدافعين عن دينهم
العظيم .

وكان شعاره الذي يصيحُ به طوال المعركة :

أحد أحد .. أحد أحد .

وتأتي الفرصةُ إلى (بلال) ..

وترتفع يدهُ بالسيف ويثار لنفسه من (راسي) الكُفْر أمية
ابن حنبل) ..

هذه اليدُ التي قدها (أمية) يوماً بالأغلالِ والقيود ،
ليرفع صاحبها على الأرتالِ عن دينه ..

هذه اليد أصبحت اليوم حُرَّة ، تدافع عن دين الحق ، عن
الإسلام ، و نبي الإسلام ..

كان (بلال) رفيقا حميمًا لرسول الله .. لا يكاد يفارقه في
أيام السلم .. ولا في أيام الحرب ، وفي القتل يراه أصحابه
بطلا ، مقاتلا ، مُدافعًا عن الإسلام ، وعن رسوله .. ويزداد
حُب رسول الله كل يوم لبلال حتى كان يصفه بأنه (رجلٌ
من أهل الجنة) .

على أن هذه المكانة التي خصّها به رسول الله لم تدخل
نفسه غرورًا ، ولا كبرًا ..

وكان دائما يردد (أنا الخيشي الذي كان بالأمس عبداً ..
كنتُ ضالاً فهداني الله .. وكنتُ عبداً فأعتقني الله) .

ويتنقل النبي الكريم إلى الرقيق الأعلى ويغمر المسلمين
الحزن وإن كانوا قد رضوا بقضاه الله ..

{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَلَا
يَعْقِلُونَ} أَوْ قِيلَ الْقَلْبُ عَلَى أَغْصَانِكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ

عَفِيَّةٌ فَلَنْ يَضُرَّ اللهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}

[آل عمران : 144]

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ
الناس حُرّةً، فقد ألفوا صُحْبَتَهُ الجميلةً ، وأحبوا حديثه
الطيب ..

فكيف يطيق رجلٌ مثل (بلال) أن يبقى في المدينة وقد
خَلَّتْ من الحبيب المصطفى الذي كان أحبُّ عنده من
نفسه !!؟

طلب (بلال) من خليفة رسول الله (أبي بكر) أن يُلْزَمَ له
بالرحيل ، لأنه يفضلُّ أن يفضي ما بقي من عمره مرابطاً^(١)
في سبيل الله ..

لقد اختار (بلال) هذا الموقفَ ، لأنه سَمِعَ رسولَ الله -
عليه السلام - يقول : "أَفْضَلُ عَمَلٍ لِلْمُؤْمِنِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ
الله"

^(١) المرابط هو الرجل الذي يقف عند حدود الوطن حاميًا وحارثًا

ولا يملكُ (الصديق) خليفةً رسولِ الله إلا أن يلبي رغبةً
(بلال) ، وإن كان قد غشى أن يبقيه في المدينة مؤذناً
للمسلمين بها .. وإلى الحدود الشمالية لدولة الإسلام -
إلى الشام - سافرَ (بلال) حيث قضى ما تبقى من حياته ،
وانتقل إلى جوار ربه وهو في الستين من عمره .. ودُفن في
بلاد الشام .

عليه رضوانُ الله .. ورحمته ، وبركاته ..



